لتسامح الديني بين النصوص والواقع.

«محاولة للفهم»

أ: بو جمعة جاب الله(*)

مقدمة:

شكلت ظاهرة التسامح مع الآخر المخالف دينياً وعقدياً أولى الامتحانات التي خضعت لها عديد النصوص الدينية حين أنزلت لواقع التجربة البشرية، ولم تكن النصوص الدينية الإسلامية استثناءً في هذا الأمر... لأن تجربة الإسلام مرت بمرحلتي الضعف والقوة، وفي كلتا المرحلتين كانت النظرة إلى الآخر تأخذ زاوية مغايرة قد تصل حد التناقض ــ أو هكذا يفهم ظاهرياً من النصوص الدينية ــ.

ضمن هذا السياق الجدلي لتعدد المعاني، بتعدد الفهوم والأحداث، تأتي هذه المحاولة للفهم والإضاءة حول بعض مناطق الظل من تاريخنا، غرضنا من هذا الحفر إثارة النقاش حول مفهوم طالما اختصر ضمن مجال الوعظ، وذلك في إغفال واضح لبُعده البشري إنتاجاً ودلالة وممارسة.

أولاً: التسامح، المنشأ والدواعي[1]:

لم يطفوا هذا المفهوم فجأة على سطح التداول بين المفكرين والباحثين، وإنما جاء اكتشافه تدريجياً، كضرورة أملتها الحروب الدينية التي اجتاحت المجتمع الأوروبي، حيث كان «مرسوم نانت، Edit de Nante»، 1598 إعلاناً للتهدئة بين كل المذاهب الدينية، والسماح لها بحرية العبادة والمعتقد، وفي الوقت نفسه تعبير عن نهاية الحروب الدينية في فرنسا، وإشاعة أجواء التسامح مع أتباع البروتستانت الكالفينيين.

في نفس الوقت، نجد أن المفهوم نما في عصر الأنوار ضمن السيرورة التي ستنضج فيما بعد هذا المفهوم، حيث كانت رسالة التسامح لـ«جون لوك»، من أقدم الرسائل التي ألفت في هذا المجال، أين يعرف التسامح بأنه:«هو ما يميز الكنسية الحقة». فالمسيح يقول:«سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعدائكم، باركوا لأعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات...»[2].

وقد كان «جون لوك» رافضاً لفكرة إجبار الناس على اعتناق عقائد معينة، مؤمناً وداعياً لاستخدام وسيلة السلام والأسوة في نشر العقائد. أما «جون جاك روسو»، فقد جعل من التسامح والرأفة أساساً لعقده الاجتماعي، فالرأفة والتسامح عاطفة طبيعية فطرية مجبول عليهما كل فرد، شرط أن يترك على سجيته الأولى.

أما محمد أركون، فلقد رأى بأن التسامح كمفهوم حديث لم يكن موجوداً أصلاً في التراث الإسلامي، المسيحي أو اليهودي، وإنما كان نتيجة التطور التاريخي الغربي، الذي تخلص من السياجات اللاهوتية التقليدية عقب عصر الأنوار الأوربي[3].

ثانياً: التسامح في التراث الإسلامي.

1. مفهوم التسامح في القرآن الكريم:

لا يوجد لفظ التسامح في كل سور القرآن الكريم، هذا الغياب في كتاب المسلمين المقدس يجعلنا نتساءل بداية عن سر غيابه؟... خاصة وأن معنى التسامح هو القدرة على تحمل الآخر، المناقض لمنظومتنا الفكرية والأخلاقية. غير أننا نجد في القرآن الكريم مصاديق هذا اللفظ؛ كالصفح والعفو والاختلاف والتعدد ...الخ، وهي تتكرر في غير ما موضع. مثل:

- {ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين}[4].
- {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[5].
- {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[6].
- {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[7].
- {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ}[8].
- {وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}[9].

من خلال الآيات السابقة، يمكن أن نستخلص ركائز التسامح في القرآن الكريم، فهو قائم على:

- إقرار التعدد والتنوع، فهو ظاهرة طبيعية، وسنة كونية، وكما يجب على المسلم أن يؤمن بوحدانية الخالق، عليه أن يؤمن بتعددية الخلق في مجالات شتى. {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ}[10].
- أن اختلاف الدين واقع بمشيئة الله تعالى:{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[11].وقال تعالى:{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ}[12].
- حساب المختلفين في دياناتهم ومذاهبهم واتجاهاتهم الدينية والأخلاقية التي نشأوا عليها، ليس إلينا، ولكن إلى خالق الجميع، إلى الله وحده، وليس في هذه الدنيا، ولكن في الدار الآخرة، يوم القيامة. قال تعالى:{وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ، اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[13]. وفي سياق آخر يقول له في شأن أهل الكتاب:{فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[14]. وكذلك:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[15].
- الإسلام ينظر إلى البشرية كلها، _ أيا كانت أجناسها وألوانها ولغاتها وأقاليمها وطبقاتها _ بوصفها أسرة واحدة. قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}[16].
- تكريم الإنسان من حيث هو إنسان، بغض النظر عن لونه أو لغته أو إقليمه أو طبقته الاجتماعية التي ينتسب إليها، أو حتى دينه الذي يعتنقه ويؤمن به. وذلك أن أساس التكريم في نظر القرآن هو: الآدمية ذاتها، كما قال تعالى:{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}[17].

هذه أهم الركائز التي يدور حولها مفهوم التسامح في القرآن الكريم، وهي التي من شأنها أن تضبط نظرة المسلم لنفسه وللآخرين،حينما تجعل من الحكم على الآخر ومحاسبته أمراً إلهياً صرفاً.

2.تجليات المفهوم القرآني للتسامح في الواقع.

«شواهد من تاريخ المسلمين»:

أ _ حروب الردة:

لم يكد النبي صلى الله عليه وسلم ، يسلم روحه الشريفة إلى بارئها حتى واجهت القيادة الجديدة للمسلمين في مركز الخلافة بالمدينة المنورة تحدياً من طرف عدد من القبائل العربية التي امتنعت عن أداء ما كانت تخرجه من زكاة. قال الطبري:«وقد جاءته وفود العرب مرتدين يقرون بالصلاة ويمنعون الزكاة فلم يقبل ذلك منهم وردهم»[18]. فعزم أبو بكر الصديق على قتال تلك القبائل، فقال عمر بن الخطاب: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله». فقال أبو بكر الصديق: والله لأقاتلنَّ من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله، لقاتلتهم على منعها.

بهذا المنطق الذي اتبعه الصديق في قتال من ينكر جزءً من الدين، ولو تأويلاً وفهما، حيث فهمت بعض القبائل أن الغرض من دفع الزكاة للرسول صلى الله عليه وسلم هي كونه كان يستغفر لهم، يقول ابن كثير في البداية:«وذكر أن منهم _ أي المرتدين _ من احتج بقوله تعالى:{خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم}[19]... قالوا: فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا، وبالتالي بانقضاء السبب بوفاته تسقط عنهم الزكاة، وهذا يوقعنا في معضلة أولى واجهها مفهوم التسامح في إحدى ركائزه القرآنية ممثلة في حصر فعل حساب المخالف لله وحده. وربما هذا هو الرأي الذي كان راجحاً عند الصحابي عمر بن الخطاب يومها.

ب .حكم المرتد:

كيف ينسجم الحكم بقتل المرتد مع مبدأ الحرية؟ خاصة إن المرتد عن الإسلام لم يقصد بخروجه زلزلة عقائد المسلمين، أو فتنتهم والخروج عن النظام، فهل يحاكم صاحب هذا الارتداد بالقتل كما يرى فقهاء المسلمين ذلك؟، أين نذهب من الآية:{وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ}[20]. هنا نجد الفعل التأويلي للآيات القرآنية، حيث يظهر لنا من يقول بأن الإسلام أعطى للناس حرية الرأي والفكر، هو قول كفري ويخالف شرع الله الذي جاء في الآية:{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله}[21].

وهذا القول في الواقع مناقض لركيزة لا إكراه في الدين، فالإكراه والقمع وتكميم الأفواه وقطع الرقاب لا يجدي نفعاً، لأن من يختار الكفر أو الشرك سيجد متسعاً لذلك مهما زادت الضغوط. ولو كان الله مريداً لذلك لأجبر الإنسان على الإيمان تكويناً. ويرى آخر أن الإسلام ليس بدعا في هذا المجال «فكما لا يمكن للديمقراطية الغربية مهما آمنت بالحرية الشخصية أن تسمح للأفراد بمناوأة فكرة الحرية نفسها وتبني أفكار ديكتاتورية، كذلك لا يمكن للإسلام أن يقر أي تمرد على قاعدته الرئيسية»[22].

وهذا المنطق مردود عليه، حيث أن الديمقراطية الغربية لا تمنع الإنسان من تبني الأفكار الديكتاتورية، ولا تعاقبه لمجرد اعتقاده بها، وإنما تحاسبه على الدعوة إليها والعمل لأجل تحقيقها بما يعرض النظام الديمقراطي للخطر.

ج . الفتوحات الإسلامية:

يرى أنصار حركة الفتوحات الإسلامية أن الدافع وراء ذلك كان الامتثال لأمر رباني، فالمسلمون حملة رسالة عالمية، قال الله تعالى:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[23]. فوفق هذا المنظور؛ فقد انطلق الرعيل الأول من المسلمين حاملين رسالتهم إلى شعوب العالم، لكنهم حملوا إلى جانب الرسالة السيف، فقد جاءت الآية 29 من سورة التوبة لتقول:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}[24].

وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجاً واستقامت جزيرة العرب، أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع للهجرة. وقوله:«حتى يعطوا الجزية»، أي إن لم يسلموا «عن يد»، أي عن قهر لهم وغلبة، «وهم صاغرون»، أي ذليلون حقيرون مهانون، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة، ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صغرة أشقياء.

وهكذا انطلق الفتح الإسلامي الذي يسميه البعض غزواً، والذي يعني استعمال القوة والسيف بغية نشر الإسلام وتطهير الأرض من الكفر والكافرين. وقد عُرفت الأفعال الجهادية في عهد الرسول بالغزو أو الغزوات، فكانت غزوة أحد، وغزوة حنين، وتبوك... أما كلمة الفتح؛ فهناك من يرى أنه مصطلح مهذب وعاطفي استخدم للتخفيف من وقع وهول الغزو، غير أنه غير صادق، فهو حاضر حيث يتم تبليغ الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، ويختفي ويتنحى، تاركاً مكانه لمصطلح (الغزو) عند الإحتكام للسيف وإراقة الدماء، والأصل في الفتوح هو تبليغ الدين بالسبل السلمية.

والمتتبع لتاريخ الفتوحات الإسلامية يجد أنها في أغلبها جهاد الطلب (فعل هجومي)، استعملت فيه القوة والقتل والسبي، فهو غزو أكثر منه فتح. وربما للتدليل على هذا الرأي يذهب أصحابه إلى طرح إشكالية الفتوحات الإسلامية في شمال إفريقيا، فالأمازيغ لم يهاجموا الإسلام في أرضه وديارهـ،كل ما فعلوه هو الدفاع المشروع عن بلادهم وأراضيهم وأرزاقهم وعيالهم ضد طلائع وجحافل جيوش قادمة من المشرق العربي.

فلقد استمرت عملية غزو إفريقية مدة طويلة قدرها المؤرخون بأزيد من سبعين (70) سنة، أي من 25 هجرية إلى غاية نهاية ولاية موسى بن نصير عام 95 للهجرة، في حين أنها لم يزد غزو مصر عن عامين، والشام عن سبع سنين، فالغزو العربي للشام ومصر كان فاصلاً في سنواته الأولى في حين تأخر في شمال إفريقيا.

فصل المقال، أن حركية ما سمي بالفتوحات الإسلامية لشمال أفريقيا بتعدد غزواتها الثمانية، طول مدتها (70) سنة، صاحبتها الكثير من الأخطاء المرتكبة، وهو ما يدعونا إلى طرح سؤال صريح هو: هل الأخطاء المرتكبة أيام الفتوحات الإسلامية لشمال إفريقيا هي من تعاليم القرآن؟ أم أنها من نسج الفقهاء بتأويل فاسد لآيات الجهاد؟.

ثالثاً: معضلة التسامح في الإسلام بين النسخ والتأويل:

جاء في صحيح مسلم:«لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه»... مثل هذا الحديث الذي يروى في صحاح الكتب الإسلامية يطرح معضلة رئيسية قد يتجنب الكثير مناقشتها، وهي النصوص التي تظهر الإسلام في صورة الدين غير المتسامح مع الآخر المخالف.

فآية السيف نسخت ما قبلها، {فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم}[24]، وكذلك:{وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة}[24]. فبعد آية السيف أصبح أهل الأرض ثلاثة؛ كما يقول ابن القيم:«مؤمن آمن، ومعاهد مسالم، وكافر خائف، إما أن يدفع الجزية، وإما يؤمن، وإما يقاتل، فلذلك كان المسلمون يعرضون هذه العروض الثلاثة... إسلام أو جزية أو سيف. منذ أن نزلت آية السيف حتى يومنا هذا. انتهى الأمر. أما مشركوا جزيرة العرب فلا يقبل منهم إلا الإسلام، أي جزيرة العرب لا يقبل منها الجزية؛ إما الإسلام وإما القتل».

إن لم يتجرأ العلماء الأفاضل على رفض التفاسير التراثية لهذه النصوص، وبقينا نصر على ضرورة فهم النصوص الدينية وفق فهم السلف لها، فسيبقى الإرهاب يستنسخ نفسه، وسيكون الكلام عن التسامح الديني ووسطية الإسلام واعتداله وتقبله للآخر مجرد كلام

طوباوي لا جود له على أرض الواقع.

خاتمة:

التسامح ليس مسألة تهاون أو تساهل، بل هو المعاملة بالمثل والمساواة بين الشعوب أو المجتمعات في الحريات والحقوق والواجبات. هذا المنظور لمفهوم التسامح الذي يدعو إلى المساواة بين جميع المجموعات العرقية وجميع المجتمعات يبدوا أنه لم يكن موجوداً. في الواقع، في العصور الوسطى أو في العصر الحديث، سواء في الشرق أو في الغرب. هذه النتيجة تسمح لنا أن نستنتج نوعاً من استقلالية النظرية عن الممارسة.

لكن مع ذلك، لا يمكننا أن ننكر وجود التسامح في تاريخ الإسلام والمسلمين، ولو لم يرتق إلى مفهوم فلسفي أو قانوني. لأنه لا يمكننا بأي حال من الأحوال محاكمة التاريخ الإسلامي بقوانين اليوم. فهذه الورقة محاولة لفتح النقاش حول موضوع فهم النص الديني من طرف الفاعل الاجتماعي في جزئية التسامح، بغض النظر عن كونه من السلف أو الخلف، وهذا بغية أنسنة الصورة المثالية _ السلف _. فهم أناس عاشوا مثلنا ضمن سياقات اجتماعية وثقافية وسياسية معينة، واجتهدوا ضمن هذه السياقات على إنتاج فهوم معينة تتلاءم مع ظروفهم. ولا يلزمنا _ حسب رأيي _ إعادة إنتاج تلك الفهوم، بالقدر الذي تتوافق فيه مع الزمان والمكان الذي نحيا فيه

الهـوامش:

(*) بو جمعة جاب الله: أستاذ جامعي، «جامعة زيان شريف»، ولاية الجلفة (الجزائر).

(1) الحاج أوحمنة دواق،مفهوم التسامح المنشأ والخصائص-بتصرف.

(2) الكتاب المقدس: العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح 05، العدد47/43، دار الكتاب المقدس، ط14، 2007، ص.ص: 6-7.

(3) محمد أركون، من فيصل التفرقة إلى فصل المقال... أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟، ترجمة: هاشم صالح، ط 02، دار الساقي، بيروت، لبنان، 1995، ص: 109. (بتصرف).

(4) القرآن الكريم، سورة هود، الآية رقم: 118.

(5) القرآن الكريم، سورة الحجرات، الآية رقم: 13.

(6) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية رقم: 256.

(7) القرآن الكريم، سورة النحل، الآية رقم: 125.

(8) القرآن الكريم، سورة المؤمنون، الآية رقم: 96.

(9) القرآن الكريم، سورة فصلت، الآية رقم: 34.

(10) القرآن الكريم، سورة الروم، الآية رقم: 22.

(11) القرآن الكريم، سورة يونس، الآية رقم: 99.

(12) القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآية رقم: 35.

(13) القرآن الكريم، سورة الحج، الآيات رقم: 68 – 69.

[14] القرآن الكريم، سورة الشورى، الآية رقم: 15.
[15] القرآن الكريم، سورة الحج، الآية رقم: 17.
[16] القرآن الكريم، سورة النساء، الآية رقم: 01.
[17] القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية رقم: 70.
[18] محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1983، ص: 474.
[19] القرآن الكريم، سورة التوبة، الآية رقم: 103.
[20] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية رقم: 29.
[21] القرآن الكريم، سورة الأنفال، الآية رقم: 39.
[22] حسين الخشن، الفقه الجنائي في الإسلام _ الردة نموذجا_، مؤسسة الانتشار العربي، 2011، ص: 30.
[23] القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية رقم: 143.
[24] القرآن الكريم، سورة التوبة، الآية رقم: 29.

قراءة في الثنائية (التسامح الديني / التعصب)

أ.رحيمة بن الصغير+

الملخص:

لقد أخذ موضوع التسامح مساحة كبيرة من المقاربات النظرية الحديثة و أصبح أحد أهم إشكاليات العصر. فاعتبر ضرورة للتعايش فرضها المجتمع المدني المبني على التعددية السياسية و الثقافية و الاجتماعية، إذ لم يعد مجرد حوار للحضارات أو للثقافات أو تفاعلاً اجتماعيا ليصبح موقفا إنسانيا لا يَعترِفُ بالاختلاف و التعدد في الوقت الذي تنبذ فيه كل الأديان اللا تسامح أو التعصب و تصفه بالموقف اللا إنساني و لا حضاري. رغم أن استخدامه في سياق الحديث عن الجانب الديني جاء لتفعيل الحوار و التعامل مع الآخر و القبول بالتعددية.

يمكن لنا أن نضع إشكال لهذا المقال و هو: هل هناك تفعيل للدين على قيم التسامح التي جاء بها النص الإسلامي (الكتاب و السنة النبوية) في المجتمع المدني اليوم؟

وللإجابة عن هذا التساؤل قسمنا هذا العمل إلى ثلاث مباحث، تناولنا في المبحث الأول التسامح الديني وحرية المعتقد من الأخلاق الإسلامية، وتعرضنا في المبحث الثاني إلى بعض نماذج التسامح و التعصب و ختمنا بالمبحث الثالث و هو قراءة في متناقضات نعيشها اليوم.

الكلمات الدالة: التسامح، التعصب، حرية المعتقد، الأخلاق الإسلامية، دولة المدينة، التربية الأصلية في قصبة الجزائر، الأمير عبد القادر، النظرة الدونية و التقليدية للمرأة.

مقاربة لمفهوم التسامح: التسامح في اللغة يعني أن تتغاضى عن خطأ ارتكبه غيرك، أو تتساهل معه، أو أن تصبر على إساءة الآخرين لك. و بالموازاة مع هذا التعريف اللغوي يرى **قاسم عبده قاسم** " أن المصطلح اتخذ أبعادا غير الأبعاد اللغوية و صار يعبر عن موقف ثقافي/ اجتماعي. و فكرة التسامح نفسها تبدو نابعة من ثقافة غير متسامحة في جوهرها[1]

أولا: التسامح و حرية المعتقد من الأخلاق الإسلامية

رغم أن مصطلح التسامح الديني صيغ في خطابات غربية وظروف تاريخية و اجتماعية و ثقافية معينة أوجد فيه الغرب حلا لمشاكلهم، إذ يمكن القول أن التسامح يأخذ من السياق الذي تواجد فيه. إلا أن المسلم اليوم يواجه أزمة هوية خاصة بعد أحداث الحادي عشر سبتمبر التي فجرت قضية حوار الحضارات وجد النظام الغربي فيها متسعا من الوقت لإسقاط مفهوم التعصب / اللا تسامح على الإسلام، فوصفوه بالرجعية و التخلف و قدموه كنموذج تيوقراطي معادي للديمقراطية و غير معاصر. و للرد على هذا لم نجد على مدى تاريخ المجتمعات الإنسانية نموذجا نتمثل به لمقاربة مفهوم التسامح أفضل من أخلاق الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم– في بناءه لمجتمع المدينة المنورة– يثرب– الذي أسسه على أسس الديمقراطية والإنسانية حيث عرف المدِنية قبل 14 قرناً من الآن، فمدينة محمد كانت دولة مواطنة بامتياز على قدر من التعددية الدينية و السياسية و الثقافية. عرف فيها المسلمون والنصارى و اليهود حقوقا و واجبات من خلال وثيقة المدينة التي أعطت لحرية المعتقد وكرامة الإنسان أولوية نستدل بقوله عليه الصلاة و السلام " يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم و للمسلمين دينهم"، و قد عُرف عن نبي الله أنه عاد مرضى غير المسلمين و أكل ذبائحهم و مشى في جنائزهم[2] و تعامل معهم تجارياً إذ وجد درعه بعد وفاته مرهوناً عند يهودي، كما ثبت عليه أنه نهى عن قتل الرهبان في قوله" ذروهم و ما انقطعوا له" و في قراءة متمعنة لسيرته نجد أنه لم يكن متسامحاً فحسب بل و محتوياً للآخرين و خاصة من غير دينه في قوله تعالى" لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ"(الآية 6، الكافرون) ونزلت هذه الآية لتوضح تسامح الرسول الكريم مع أهل الأديان حيث قدم وفد من النصارى و هو في مسجده بعد صلاة العصر و عندما قام قداسهم قاموا وصلوا قِبل المشرق لكن الرسول تركهم يصلون، و هو دليل على احتواء ذوات الآخرين و احترام أديانهم. إن في سيرة محمد المباركة رمزية عميقة لمبادئ التسامح فكيف بكتاب الله و ما وضعه من أسس و ثوابت للحوار؟ و من جملة ذلك أن الله عز وجل حث الناس جميعاً على التعارف في قوله تعالى" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا...."، ذلك أن الإسلام دين يخاطب الناس جميعا لا يفضل قوماً على قومٍ في قوله تعالى" إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدوني"(الآية 92، الأنبياء)

ما يمكن قوله هو أن المبادئ التي أرساها الدين الإسلامي و أعلنها محمد عليه الصلاة و السلام منذ 14 قرناً من الزمان ما هي إلا ما يعرف اليوم بالميثاق العالمي لحقوق الإنسان، محمد صلى الله عليه و سلم أرسى دولة المواطنة والحريات و الديمقراطيات قبل قرون لكن دون المساس بحرية معتقد الآخرين، و ما ينبغي على الحكومات الغربية اليوم هو عدم الخلط بين الإسلام و المسلمين، لأن التطرف و ما جسد في تنظيم الدولة الإسلامية في العراق و الشام –أو ما يعرف بداعش – لا يمت للدين الإسلامي بأي صلة بل أكثر من هذا فهو يُجسد التعصب فهو تنظيم لا دين له.

ثانياً: نماذج التسامح الديني و التعصب

---

[1] قاسم عبده قاسم: التسامح المعنى و المغزى، مجلة العربي، ع 542، الكويت، 2004، ص 16.

[2] عصام طوالبي: **لمحة تاريخية حول تطور فقه السياسة الشرعية والأقليات الدينية في الإسلام**' مجلة الصراط، ع26، الجزائر، جانفي2013.

1. نماذج التسامح الديني

نموذج الحياة في القصبة الجزائرية:

تعد القصبة الجزائرية معلما تاريخيا يحتوي على أكبر تجمع عمراني يعود إلى عصور قديمة. حسب النمط المعماري القديم كان قلب القصبة يعرف بالجبل، يصل خمسة أبواب محروسة ليلا و نهارا، معروفة بأزقتها الضيقة المدرجة و المتداخلة كان هناك سوق الجمعة عبارة عن تعاريج ضيقة، تحيط بمنازل الأهالي و قصور أعيان المدينة السابقين في هذا المكان تعرض للبيع أنواع من الطيور النادرة وكذا الحمام و العصافير المغردة كل يوم جمعة ابتداء من صلاة الفجر إلى غاية ارتفاع صوت آذان الجمعة، و كانت زنيقة سوق الجمعة من أرقى زنيقات المدينة لقربها من قصر الحاكم" الجنينة".

سماحة الحياة في تلك الفترة كانت تفرض ضبطا اجتماعيا على الأفراد تمثل في التعايش و التساند الاجتماعي، أين كانت القصبة وجهة كبار التجار و سادة البحار و المثقفين من السلاطين و ملجأ للعبيد و يعبر العمران عن " الحشمة" كالنوافذ العالية التي تطل على بهو الدار تدل على التسامح و احترام الجار رغم اختلاف أديانهم من مسلمين و مسيح و يهود. رغم أن الدار الواحدة كانت تظم أكثر من أربع عائلات تربطهم صلة القرابة إلا أنهم كانوا يتقاسمون الحمام و الخيامة أي المطبخ في اللهجة العاصمية القديمة و الحمام عكس ما هو اليوم حيث شوه عمران القصبة.

رغم أن النزعة الوضعية في القرن التاسع عشر قد رفضت الاعتراف بالبعد الخيالي والأسطوري للإنسان، حيث اعتبرت الدين والبعد الديني شيئا متجاوزا ينتمي إلى العالم القديم أما العلوم المعاصرة تجد في الأسطورة توظيفا لثقافات الشعوب و أخلاقياتها. يقول في هذا **محمد عبد الرحمان يونس:**" إن جميع الميثولوجيات العالمية انطلقت من أسس خرافية، تشعبت و تلاحمت لدى عدد من الشعوب فكونت وحدة مترابطة متداخلة[3] و من الأساطير القديمة و التي أخذت من الرمز أسطورة المؤمنة و المعكرة التي عرفت في القصبة[4] و التي تعبر عن رمزية دينية و في هذه الأسطورة قيمة التسامح الذي لا يرتبط غالبا بالأخلاق فالمعكرة قد تسامحت مع المرأة الحامل و أعطتها نصيب أختها المؤمنة من الأكل مقابل رهن بيتها و هي الراقصة في الحانات على عكس أختها المؤمنة. الأساطير تنقل التصورات و الممارسات و القيم و الأخلاق التي سادت في مكان معين و في زمن معين و تجربة معينة وهي أحد وسائل التنشئة الاجتماعية و التربية على القيم و التقاليد.

---

[3] محمد عبد الرحمان يونس: **الأسطورة مصادرها و بعض المظاهر السلبية في توظيفها**، ط1، دار الألمعية، الجزائر، 2014، ص 30.

هذه الأسطورة الأقرب إلى الخرافة جد متداولة في القصبة الجزائرية ترويها لنا مخبرة تعيش في القصبة لأزيد من أربعة عقود، و تروي هذه الأسطورة أن أختان كانتا تعيشان في نفس الدار مع إحدى قريباتهن التي كانت حاملا في بدايتها، إحدى الأختان تدعى المومنة كونها ورعة بكتاب الله و متدينة، بينما الأخرى امرأة ملاهي و راقصة في الحانات تدعى المعكرة قد تعود هذه التسمية إلى أخلاقها و سلوكاتها غير المحتشمة، أو كما قال لنا أحد المخبرين المعكرة في اللهجة العاصمية القديمة تعني المتجملة بشدة بأدوات التجميل، طبخت ذات يوم المومنة طبق الرأس أو ما يعرف بالبوزلوف في اللهجة الجزائرية فاشتهت قريبتها و هي حامل فقامت و طلبت منها أن تسخن لها جمرة حتى تشتم الرائحة و هكذا مرة و اثنان و ثلاث، و بعدها أخبرتها المعكرة أن المرأة تشتهي لكن أختها رفضت إعطاءها، هنا اقترحت عليها المعكرة أن تهديها دويرتها بمعنى غرفتها مقابل ذلك، و ناموا في الغد لم تخرج المعكرة فكسروا عليها الباب، ماذا وجدوا المعكرة ميتة و مغسلة و مكفنة ومخضبة اليدين بالحنة و أقيم لها قبر هو اليوم ضريح يزار، و الزائر للمكان اليوم –الضريح – يجد أن البيت جد متواضع ما يعكس حياة الفقر هناك.

نموذج الأمير عبد القادر الجزائري

من النماذج الحديثة التي يمكن مقاربة مفهوم التسامح فيها شخصية عبد القادر الجزائري مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، حيث " كانت ثقافة عبد القادر مزيج بين الحضارتين: العربية الإسلامية و الأوربية دون ميل أو انحياز للغرب[5] فقرأ لكبار فلاسفة اليونان(أفلاطون و أرسطو)، ولعل التعددية الثقافية هي التي جعلته يقبل على التعارف على أديان الآخرين فقد كان على علاقة وطيدة مع النصارى" بالإضافة إلى صداقته الكبيرة مع قس الجزائر العاصمة دوبوش (1846) و أتباع مدرسة الماسونية[6] من باب التثاقف و التعرف على الأخريين و ليس كما يحلوا للبعض من مفكري هذا الزمان اتهامه بالماسونية، كما لا ننسى كيف أطفأ نار الفتنة أو ما يعرف بطوشة النصارى (العرب المسحيين) مع أتباع المذهب الأرثوذكسي التي انفجرت سنة 1860 أنقذ فيها أكثر من 12000 مسيحي من موت محتم[7] يمكن القول أن شخصية الأمير عبد القادر التي فرضت نفسها على الجنرال بيجو للتفاوض تحمل إنسانية راقية في الحفاظ على العهد من خلال عدم نقضه للمعاهدات كمعاهدة التافنة و معرفته لحقوق الإنسان التي رعاها في تأسيسه لدولته أو كما عرفت بالدولة الدينية، حيث اتخذ من القرآن الكريم أساسا للتشريع القانوني. و عن تعليم المرأة عرف أن والدته و أخواته و بناته يجدن القراءة و الكتابة" فهل يمكن لنا تسفيه الأمير بمناقشة رأيه في تعليم المرأة و هو المسلم التقي الذي يعرف موقف الدين من العلم، و ليس للرجال فقط بل لكل مسلم و مسلمة[8]

2 نماذج اللا تسامح

عدم تسامح الإنسان يعني نزوعه المفرط لقيم اللا إنسانية وعداء الإنسان للإنسان في حد ذاته ، و في ذلك قال **عبد الرحمان ابن خلدون:**" الإنسان كائن متعصب، عدواني في جوهره" ،كما أشار الفرنسي **بول ريكور** أن التعصب ميل طبيعي لدى كل البشر(كل فئة أو جماعة تفرض عقائدها و قناعاتها على الآخرين) و حتى في هذا التعريف النفس اجتماعي يمكن القول أن أشد أنواع التعصب يصل حد الإجرام و هو ما سنراه في الأمثلة التالية:

- حرمان المرأة من الميراث:

من أقوى نماذج اللا تسامح نجد ذلك الذي تتعرض له المرأة في عدة نقاط لعلى أولها هو حرمانها من الميراث و هذا معروف منذ القدم و في عدة مناطق من الوطن، خاصة فيما يُعرف بالعروشية، أين تُرغم المرأة على ترك ميراثها من الأراضي مقابل مبلغ زهيد أو من عدمه

---

[5] فتحي دردار: **الأمير عبد القادر بطل المقاومة الجزائرية(1832-1847)**، بسي سوليتاك للإخراج،الجزائر، 2001، ص26 .

[6] عصام طوالبي: **التعددية الدينية و حرية المعتقد في فقه المدرسة الإصلاحية**، مجلة تصدر عن اللجنة الوطنية الجزائرية للتربية و الثقافة و العلوم، ص 78.

[7] فتحي دردار، مرجع سبق ذكره، ص108.

[8] بشرى خيربك: دراسة لبعض مغالطات المصادر التاريخية و تناقضاتها: تحفة الزائر و مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر، (**مجلة الدراسات التاريخية**)، العددان 117- 118، جوان 2012، سوريا، ص 435.

لإخوتها الذكور و ذلك من مبدأ أنها تقدمه للزوج الذي يُعتبر غريبا عن أهل الزوجة و لا يمكن التفريط في الأرض للغريب، و في حرمان المرأة من الميراث يقول الله عزّ و جلّ:" يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها و لا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما أتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة و عاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا و يجعل الله فيه خيرا كثيرا"[9] كما أن الرجل أيضا عندما يخرج عن قانون القبيلة "تاجماعت" و أعرافها يصبح مغضوبا عليه و يحرم من الميراث و يمنع من التزوج أو الرجوع للقبيلة[10] و هناك في مناطق من الوطن مثل الشرق الجزائري يُعرف الخارج عن أعراف القبيلة و المحروم من الميراث بالمقرود.* و هنا نجد أن هذا السلوك الاجتماعي لا يأخذ من نسق الأخلاق و الدين في التعامل مع الأفراد و هو ما يُعرف بالا تسامح أو التعصب.

- نموذج النظرة الدونية للمرأة:

تعود جذور نظرة الرجل الدونية للمرأة إلى الجاهلية و ما قبل الإسلام أين كان الاحتقار للمرأة من طبائع العرب. و بذلك كان مدلول الأنثى مرتبطا بالعار

فكان الحل عندهم في الوأد. يرى فؤاد حيدر " إن الأسباب التي جعلت الجاهلي يحتقر الأنثى و يجعلها في مستوى يحط من قيمتها الإنسانية و الاجتماعية، مرده إلى أن العربي في الجاهلية أساء استعمال المفهوم اللغوي لكلمة (أنثى) حيث تدل على معان مختلفة تتفاوت في القيمة الإنسانية و الاجتماعية(...) نراه أحيانا يطلق الكلمة للدلالة على الانحطاط و الدونية للمرأة، و أحيانا أخرى تطلق للتعبير عن آلهتهم[11] و من جملة اعتقادهم أن الآلهة إناث سموهم (اللات و العزة و مناة) و غيرها و إن كنا نتحدث عن الجاهلية الصغرى فنحن اليوم في الجاهلية الكبرى و الأشد من الأولى حيث لا تزال المرأة مُحتقرة إضافة إلى عادة حرمانها من المهر رغم أن الخالق عز و جل قد أعطى للمرأة حقا رمزي من الزوج تمثل في المهر إلا أن بعض المناطق الجزائرية لا تزال الأعراف فيها تملي على الآباء أخذ مهر البنت مقابل تربيتهم لهن ، هذه العادات على قدر قدمها إلا أن المفارقة استماتتها في وجه التغير الاجتماعي الذي حدث في مختلف بنيات المجتمع الجزائري، و عن بقاء العادات الجاهلية تقول شامية بن عباس"(...)تبين لي أن القرآن الكريم لم يذكر هذه العادات الجاهلية الممارسة ضد المرأة لإخبارنا بها، أو لتصحيحها فحسب بل لأن الله يعلم أن هذه العادات ستضل قائمة عند بعض الناس إلى أن يرث الله الأرض و من عليها، و لهذا بين بالأدلة القاطعة أن الرجل و المرأة من نفس واحدة و أن اختلافهما في الجنس لا يعني الضدية و العداوة، و إنما يعني التكامل و التعارف"[12]

النظرة الدونية إلى المرأة المطلقة تجعل منها مصدر عار و خزي على عائلتها، حيث توسم المرأة المطلقة و حتى الأرملة بأنها امرأة غير شريفة – سهلة المنال- إلى درجة أنه في عرف بعض المناطق من الوطن تبنى أحياء سكنية خاصة بالمطلقات للأسف الشديد، إضافة

---

[9] سورة النساء، الآية 19.

[10] الزبير عروس: **نظرية الوصل و الفصل** ، محاضرات في النظريات الحديثة، مقدمة لطلبة السنة أولى الماجستير، تخصص علم اجتماع الديني، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة الجزائر2، الجزائر، 25/04/ 2010.

* و من جملة ذلك أن أغلب المناطق في الجزائر – على لسان مجموعة معتبرة من المخبرين- قد عُمرت بفضل هؤلاء الخارجين عن الأعراف الذين حطوا رحالهم و سكناهم على مقربة من قبائلهم.

[11] فؤاد حيدر: **المرأة في الإسلام و في الفكر الغربي**، دار الفكر العربي، لبنان، د س ط ، ص 115.

[12] شامية بن عباس: صورة تعامل الرجل مع المرأة العربية قبل الإسلام في القرآن الكريم، **مجلة العلوم الاجتماعية و الإنسانية**، ع 26، جامعة باتنة، الجزائر، جوان 2012، ص 169.

إلى أن التفتح و ما عرفته المرأة من تعليم و تثقيف لم يغير حقيقة أنها لا تزال غير متكافئة مع الرجل – و إن تفوقت عليه – في المكانة الاجتماعية و الحظوة في محيطها الأسري على عكس المحيط المهني، حيث يُبجل الذكر و يُقدر أكثر من المرأة لتعلمه و تكوينه و نجاحه، و لا نتعجب عندما نجد بعض المناطق من الوطن تذبح العقيقة للذكر فرحا بازدياده لا للسنة في حين لا تُقام العقيقة للأنثى و نفس الشيء مع حفلات التخرج و النجاح و غيرها، هذا التمييز في حقيقته يعد موروث من التربية التقليدية و أصبح عنصرا هاما في تركيبة المخيال الشعبي.

النضرة التقليدية للمرأة العاملة:

مع انتشار التعليم و تسرب القيم الغربية إلى المجتمع الجزائري تبدلت الأدوار بين الرجل و المرأة معلنة عن زوال الفوارق المهنية– إن صح التعبير– بينهم، فالمرأة في مجتمعنا تمثل حامي حمى القيم[13] و ينبغي أن نحكم عليها دائما بالنظرة الظاهرية، فلطالما ارتبطت مهنة التعليم بالمرأة الجزائرية فيقال دعها تربي في البيت أو المدرسة و حتى أن غالبية الجزائريين يفضلون المرأة العاملة في مجال التعليم، و في هذا يرى محمد بن عبد الله أن" كثير من الممارسات الاجتماعية و الأنشطة المهنية محكومة بالقيم السائدة في المجتمع و بالتصور الذي طرأ على الذهنيات، و يضيف...إذ أن العرف الاجتماعي ظل يعد عمل المرأة خارج البيت ظاهرة تفسخية لوجوب وقاية حرمتها[14] هذا التجذر نحو الأعراف السائدة يميّع قيم العدالة الاجتماعية و المساواة و التسامح مع المرأة مقابل إعلاء قيمة الرجولة و القوامة[15] هذا الفهم الخاطئ

يفنده رسول الله — صلى الله عليه و سلم– في إدماجه للمرأة في مجتمعه في كل المجالات كمربية و مرشدة و فنانة ذواقة و طبيبة و ممرضة و مجاهدة و حتى شاعرة

على الرغم من تقديمنا لبعض النماذج التي تقزم المرأة وتحقرها إلا أنها نضرة خاصة بفئات معينة و في مناطق معينة و هي لا ترتبط بالضرورة بالمناطق غير المتحضرة، بل ترتبط — في الغالب– بالعقدة الذكورية و عقدة أبي جهل.

و في نفس الوقت ظلت المعايير الاجتماعية تعتبر كل إمرأة تقبل على بعض المبتدعات مثل التدخين امرأة شاذة منبوذة و فعلتها مستنكرة

[13] أنظر: محمد بن عبد الله: **بسيكوباتولوجيا الشخصية المغاربية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010، ص 100.

[14] نفس المرجع، ص 101.

[15] + مفهوم القوامة لا يتنافى مع العدالة الاجتماعية فلطالما كانت المرأة سندا للرجل و العكس، رغم أنه اليوم أخذ حيزا كبيرا و مال بسبب الجهل و المصالح الفردية إلى تحقير المرأة و محاولة التقليل من مكانتها الاجتماعية خاصة المرأة الناجحة و أصبح آداة للتسلط المعنوي يستخدمها الرجل لتثبيط المرأة و الانتقاص من دورها الاجتماعي، و الواقع يقر أنه كلما اعتلت المرأة منصبا حساسا كمثال كلما كثر الحديث عن فشلها المسبق.

لقد تعرض الشعب الجزائري إلى أبشع أنواع العنف الرمزي من خلال قانون الأهالي الذي حمل في طياته معنى الإهانة و لا يمكن تقديم نموذج للتعصب أسوء من نموذج العنف أو التطرف السياسي أو ما عُرِف بالأزمة الأمنية التي عاشتها الجزائر نهاية القرن الماضي أو الحرب الأهلية التي لا دين لها.

من هذا يمكن القول أن التعصب الديني يظهر في ظل الأزمات الفكرية و لا ينشأ من مبادئ الدين كما يعتقد الكثيرون.

قراءة في بعض التناقضات:

إننا نعيش اليوم جملة من التناقضات ، ففي التشريع المدني ووفقاً لما جاء في الدستور الجزائري المادة(2) أن الإسلام هو دين الدولة و في المادة (36) من نفس الدستور "حرية المعتقد و الرأي مضمونة" كما أن الجالية المسيحية و اليهودية تؤدي طقوسها الدينية تحت رعاية وزارة الشؤون الدينية ولكن فلنتمعن في الأتي:

- الجزائر دولة إسلامية و لكن ماذا عن الأقليات الدينية الأخرى؟
- المدرسة الجزائرية أثناء تمريرها عملية التربية و من خلال مادة التربية الإسلامية تعطي دروساً في التسامح و المآخاة بين المسلمين فقط، بين المسلمين و ليس المؤمنين، حتى أن التلميذ لا يفرق بين المسلم و المؤمن في كثير من الأحيان.
- تكوين الإطارات الدينية و الخطاب الديني لا يأخذ ببعد التعددية الدينية، و لا يتميز بالمرونة و التنوع الثقافي.
- المشهد الإعلامي اليوم لا يضع الدين كموضوع أساسي، و يعتبر المواضيع المتعلقة بالدين مواضيع تتميز بالهشاشة و لا تخدم المشاهد و لا تحوي عنصر الإثارة و منه قلما تعالج المواضيع المتعلقة بالدين و الأخلاق بجدية.
- الدين الإسلامي يحث على الإحسان للفقراء و المساكين، المشردين اليوم أشخاص منبوذين قلما يُحسن إليهم الناس أين هي قيم التسامح التي يقدمها الإسلام في أحسن سوره.
- العنف الرمزي الذي يكنه غالبية مسلمي الجزائر إلى الأديان الأخرى و المتأتي في الحقيقة من عدم تمازج الأديان، فلو كان هناك تعايش مع المسيحيين و اليهود و غيرهم لكان هناك تمسك بالدين و تسامح مع الآخرين.
- المسلم اليوم رغم أن كتابه المقدس يحوي قيم السماحة و المعايير الاجتماعية التي تجعل منه فردا فاعلا بناءا معتدلا، إلى أنه ميال بطبعه للتناقض و ما انهيار القيم و تسرب القيم الغربية السلبية و الدخيلة و نزوعه نحو السعار الجنسي و الشذوذ و الأنوميا المتعددة المجالات و تفشي الظواهر السلبية كالسرقة والاختلاس و الجرائم، حتى التلميذ في المدرسة الجزائرية اليوم يعرف تدهورا في الأخلاق و الطالب الجامعي مقارنة به في سبعينيات القرن الماضي بدل أن يكون من النخبة يبحث اليوم عن الشهادة و فقط. هذا ما يدفعنا للقول أن الأخلاق هي التي تصنع الفرد المتسامح و هي في حقيقتها منتوجا أساسيا للتربية الصالحة و لا ترتبط بالضرورة بالدين، مخطأ من يظن أن الأخلاق ترتبط بالدين لأننا نجد الرحمة و التسامح حتى عند غير الموحدين.

– العلاقات الأسرية اليوم تتميز بالهشاشة و طغيان الفردانية و المصالح الخاصة فككت من لحمة القرابة الدموية و حتى علاقة الجيرة، فكم من قتيل تتعفن جثته و لا يدري جاره ما به، و كم من مرضى لا يسمع بهم أقاربهم و حتى الجنائز بات من السهل عدم حضورها و التذرع بأسباب سطحية. غابت الكثير من المعالم الجمعية على غرار التويزة في تحضير الكسكس للأعراس و حلت بطاقات الدعوة التي يحدد فيها عدد المدعوين، فتلاشى الدور الأساسي للأسرة و المتمثل في التماسك الاجتماعي مقابل العدائية التي باتت مكونا أساسيا في علاقات غالبية الأسر الجزائرية و إن أجزمت بالمعرفة اليقينية قد لا تخلوا أسرة جزائرية من هذه العدائية.

خاتمة:

في الوقت الذي نعظم فيه الحداثة ونعتبرها سلاحا للتطور تفككت لحمة مجتمعنا بتراجع قيم الرحمة و القرابة و الجيرة و التسامح لصالح النزعة الفردية المفرطة و المادية البراغماتية النفعية، و أصبح الانجرار للأطروحات التي تحقر من التقاليد والتدين الشعبي و التصوف و تعتبره شيئا رجعيا لنفقد بذلك معنى التراث و الهوية وهو يحمل معنى اللا تسامح مع هويتنا، و يبقى مصطلح التسامح على الرغم من فتوته العلمية إلا أنه نتاج لحضارة غربية تسوق له لا أكثر، لاعتبار وجوده كقيمة إنسانية أخلاقية جاء بها كل الأنبياء للتعايش الفكري و الحضاري و الإنساني، و في الحقيقة إن خطابنا حول موضوع التسامح لا يمكن له أن يحدث دونما تدخل لعنصر الذاتية المتمثل في الأنا و الغيرية مع الآخر حيث تحضر فيه الهوية لا محال و هو ما يطرح إشكالية التمايز العرقي و الثقافي و الاجتماعي و الإيديولوجي و الديني في ثقافة تقبل الآخر، فنحن اثنيا و عقائديا مختلفين لا جدال في ذلك و لكن التسامح الحقيقي هو أن يغلب علينا منطق اللااختلاف ومعنى الإنسان أخو الإنسان، و إلا ما جدوى التكتل حول حقوق الإنسان و كرامة الإنسان و خدمة الإنسان المتمثلة في كبرى الهيئات الدولية على شاكلة منظمة الأمن الغذائي، في الوقت الذي يموت فيه الأفارقة جوعا، و يموت فيه مسلمي بورما اضطهادا فأين هو تكريس قيم التسامح

الهامش: + أستاذة بجامعة الحاج لخضر– باتنة –

المراجع:

1. القرآن الكريم.
2. الزبير عروس: **نظرية الوصل و الفصل** ، محاضرات في النظريات الحديثة، مقدمة لطلبة السنة الأولى ماجستير، تخصص علم اجتماع الديني، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة الجزائر2، الجزائر، 25/04/ 2010.
3. بشرى خيربك: دراسة لبعض مغالطات المصادر التاريخية و تناقضاتها: تحفة الزائر و مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر، (**مجلة الدراسات التاريخية**)، العددان 117–118، جوان 2012، سوريا.
4. شامية بن عباس: صورة تعامل الرجل مع المرأة العربية قبل الإسلام في القرآن الكريم، (**مجلة العلوم الاجتماعية و الإنسانية**)، ع 26، جامعة باتنة، الجزائر، جوان 2012.
5. عصام طوالبي: التعددية الدينية و حرية المعتقد في فقه المدرسة الإصلاحية،(**مجلة تصدر عن اللجنة الوطنية الجزائرية للتربية و الثقافة و العلوم**)، الجزائر،(د– س– ط).

6. عصام طوالبي: **لمحة تاريخية حول تطور فقه السياسة الشرعية والأقليات الدينية في الإسلام**، مجلة الصراط، ع26، الجزائر.
7. فؤاد حيدر: **المرأة في الإسلام و في الفكر الغربي**، دار الفكر العربي، لبنان، د س ط.
8. فتحي دردار: **الأمير عبد القادر بطل المقاومة الجزائرية(1832-1847)**، بسي سوليتاك للإخراج،الجزائر، 2001.
9. قاسم عبده قاسم: التسامح المعنى و المغزى ، **مجلة العربي**، العدد542، الكويت، 2004.
10. محمد بن عبد الله: **بسيكوباتولوجيا الشخصية المغاربية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010.
11. محمد عبد الرحمان يونس: **الأسطورة مصادرها و بعض المظاهر السلبية في توظيفها**، ط1، دار الألمعية، الجزائر، 2014.